الوداع.....289
الهبوط 291

ربيع العمر 192
كلكم راعٍ 194
نجم طارق 200
دُبَي أم أكسفورد 206
دُبَي 209
من مأمنه يُؤْتى الحذر 213
ليست حلمًا 216
لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي كَبِدٍ 219
تعاون أم تطبيع؟! 223
من الصفر مرة أخرى 227
من يُضَحِّي؟ 230
أحقًا سعداء؟! 233
الصافنات الجياد 236
جيلٌ جديد وأُطُرٌ جديدة 240
مَنْ أنا؟ 243
يا ليتني 247
هيلدا 254
الحركة النسوية 257
وإلا تَصْرِف عنِّي كَيْدَهنَّ أَصْبُ إليهنَّ 260
أريد الزواج 264
ما الفرق؟ 268
لن أغفر لك 272
الكابوس 275
طلّقني 277
كفى نفاقًا 280
الخريف 284

مثل الشمس.....86
الخروج من يوتوبيا 91
عربي مسلم؟!.....95
أول الغيث 99
الكابوس 103
الأسير.....105
لتسكنوا إليها 108
الحجاب.....112
شبرا 115
كاترين.....123
ماريان.....127
فتنة للذين كفروا 131
ذرية طيبة.....135
حُمْرُ النَّعَم 138
الميلاد.....145
المجتمع المسلم.....150
سمير.....154
أشتاق إلى كاترين.....157
متى تعود؟ 161
د. ليندا 164
المدينة المنورة.....167
لبيك اللهم لبيك.....170
طارق ونُسيبة 176
تراب أكسفورد 179
عام العزلة.....183
ليس الذَّكرُ كالأنثى 188

الفهرس

مقدمة 7
النداء الأخير 8
خطوةٌ خطوة 11
مدينة الضباب 14
أكسفورد، المدينة والجامعة 17
مسجد الجامعة 19
عنبر الأجانب 21
جون 25
من قارب الفتنة 30
مدريد 34
الأندلس 38
رحلة البحث عن عروس 42
الدكتوراة 45
الخطوة القادمة 47
الرحيل 51
ليندا 54
أرض الله واسعة 56
كَجُلْمُودِ صَخْرٍ حطَّه السَّيْلُ من علِ 61
عالَمٌ غامض 64
إني صائم 67
متى تتزوج؟ 69
لقاء الأرواح 75
اليوم أُحِلَّ لكم 78
العاصفة 82

الهبوط

السادة الركاب، الرجاء ربط أحزمة الأمان والعودة إلى مقاعدكم بالوضعية الصحيحة فنحن الآن على وشك الهبوط في مطار هيثرو.

طُلَيْطِلَة ..

أيتها المدينة البائسة ..

التي اقتربت حتى احترقت ..

وشربت حتى ثملت ..

فكانت أول من هوى ..

طُلَيْطِلَة ..

أيها الماضي السحيق الذي ما برح أن يعود قبل انقضاء الليل ..

أيها الأمل الواهن الذي أسكرنا بعدما أوشكنا على الانتصار ..

طُلَيْطِلَة ...

هل كنتُ الجاني أم كنتُ الضحية؟!

أومأ برأسه على النافذة ....

اقتربت منه نُسيبة:

- أبي، أبي ....

(تمت بحمد الله)

تذكَّر طارق وحلقات القرآن، وتذكَّر طارق بن زياد ووادي لكَّة والزَّلاقة والعقاب.

تذكَّر نُسيبة بنت كعب القوية الفَتِيَّة، وتذكَّر نُسيبة بنت مصطفى بمرضها وضعفها.

تذكَّر طُلَيْطِلَة المدينة البائسة، وتذكَّر مصطفى رضوان.

تذكَّر كل هذا، فكان كَمَنْ يشقى بماضيه وحاضره وذاكرته القوية.

واعد نُسيبة أن يتقابلا في مطار القاهرة، فعليه أن يقوم ببعض الزيارات السريعة.

ذهب إلى قبر أبيه وأمه والشيخ حسن داعيًا لهم بالرحمة وراجيًا لقاءً قريبًا.

الوداع

جاءت عطلة الصيف وأراد مصطفى أن يزور مصر، شعر أنه يقترب من النهاية، وأراد أن يودِّع مسقط رأسه. طلب من نُسيبة أن تصحبه في سفره، فوافقت على الفور.

وصلا إلى القاهرة، لينزل - كعادته - على بيت أخته هدى ثم بيت أبيه.

مكث في القاهرة صامتًا يتأمل من شرفة منزله الناس وهم يسعَوْن في حواري شبرا. تأمَّل هذا الرجل العجوز الذي يسعى متكئًا على كتف ولده فتذكَّر والده وولده، وتأمَّل هذه السيدة التي يهرول أحفادها بين يديها، شعر أنه يعرفها، كانت هي، مروة صديقة هدى. ما أقسى الأيام، ها هو يتجرع من هذا الكأس مرتين، رفض مروة من أجل ليندا، وسار طارق على دربه ليرفض نور ابنة موسى من أجل هيلدا، ما أقسى الأيام وما أقسى مرارتها.

تذكَّر رحلته الأولى إلى بريطانيا حيث الأمل والسراب.

تذكَّر أمه وحنانها الفياض، وتذكَّر موتها في غربته.

تذكَّر والده وفراقه إياه أيامًا بعد وفاة أمه.

تذكَّر رحلة الدكتوراة وعنبر الأجانب، وويليام، وستيفن، وجون.

تذكَّر ليندا وتنورتها القصيرة وقُبْلَتها الأولى.

تذكَّر ماريان وكاترين والزواج.

تذكَّر ميلاد طارق وإسلام ليندا.

تذكَّر الحج ورحلة دُبَي.

تذكَّر جريجوري ورحلة النجاح.

والسيّئة ليتجنبها. ولا تكن كهؤلاء الذين كتبوا عن باريس من أبناء العرب، فلم يرَوْا إلا المحاسنَ والمزايا، ولا كأولئك الذين كتبوا عن الشرق من أبناء الغرب، فلم يبصروا إلا المخازيَ والعيوبَ، ولكن كن عادلًا صادقًا أمينًا.

وبعدُ: يا أخي، فاعلمْ أنَّ أثمنَ نعمةٍ أنعمها اللهُ عليك هي نعمةُ الإيمانِ؛ فاعرفْ قدرَها واحمدِ اللهَ عليها. وكُن مع اللهِ تَرَ اللهَ معك، وراقبِ اللهَ دائمًا، واذكر أنَّه مطَّلعٌ عليك؛ يعصمْكَ من الناسِ، ويعِذْكَ من الشيطانِ، ويوفِّقْكَ إلى الخيرِ. وفي اللحظةِ التي تشعرُ فيها أنَّ دينَك وأخلاقَك في خطرٍ؛ احزم أمتعتَك وعُد إلى بلدِك، وخَلِّ "السوربون" - جامعة في فرنسا - تنعي من بناها، وانفُض يدَك من العلم؛ إذا كان العلمُ لا يجيءُ إلا بذهابِ الدينِ والأخلاق".

نفسه؛ فتحصَّنْ بحصنِ الدينِ، وجرِّدْ سلاحَ العقلِ، تَنْجُ من الأذى كله. واعلمْ أنَّ الله جعل مع الفضيلةِ مكافأتها: صحَّةَ الجسمِ، وطيبَ الذكرِ، وراحةَ البالِ. ووضع في الرذيلةِ عقابها: ضعفَ الجسدِ، وسوءَ القالةِ، وتعبَ الفكرِ، ومن وراء ذلك الجنةُ أو جهنمُ.

فإنْ عرضتْ لك امرأةٌ بزينتها وزخرفها؛ فراقبِ اللهَ، وحكِّمِ العقلَ، واذكرِ الأسرةَ والجدودَ. لا تنظر إلى ظاهرها البرَّاقِ، بل انظر إلى نفسها المظلمةِ القذرةِ؛ أتشربُ من إناءٍ ولغتْ فيه الكلابُ؟!

يا أخي، إنّ في باريس كلَّ شيءٍ؛ فيها الفسوقُ كله، ولكن فيها العلمُ... فراجع، وابحث، واكتب، وانشر، وعِش في هذه السماءِ العاليةِ، ودَع من شاء يرتعُ في الأرض ويعيشُ على الجيَفِ المعطرةِ! غيرَ أنَّك واجدٌ في ثنايا هذه الكتبِ التي كتبها القومُ المستشرقون عن العربية والإسلام، وفي غضونِ هذه المحاضراتِ التي يلقونها، عدوانًا كثيرًا على الحق وتبديلًا للواقعِ؛ فانتبه له. واقرأ ما تقرأ، واصغِ لما تسمع، وعقلُك في رأسك، وإيمانُك في صدرك. لا تأخذ كل ما يقولون قضيةً مسلَّمةً وحقيقةً مقرَّرةً؛ فإنّ الحقَّ هو الذي لا يكون باطلًا، ليس الحقَّ ما كان قائلُه أوروبا، فانظر أبدًا إلى ما قيل، ودَع من قال.

ثمّ إنّك سترى مدينةً كبيرةً، وشوارع، وميادين، ومصانع، وعماراتٍ؛ فلا يهولَنَّك ما ترى، ولا تحقر حيالَه نفسَك وبلدَك، كما يفعل أكثرُ من عرفنا من روادِ باريس. واعلم أنها إن تكن عظيمةً، وإن يكن أهلُها متمدنين؛ فما أنت من مجاهلِ الأرض، ولا أمَّتُك بسَفِلةِ الناسِ. وإنَّما أنت ابنُ المجد والحضارةِ، ابنُ الأساتذةِ الذين علَّموا هؤلاء وجعلوهم ناسًا، ابنُ الأمةِ التي لو حُذف اسمُها من التاريخ لرجع تاريخُ القرونِ الطويلةِ صُحَفًا بِيضًا لا شيءَ فيها؛ إذ لم يكن في هذه القرونِ بشرٌ يدوِّنُ التاريخَ تاريخُه سواهم. فمن هؤلاءِ الذين ترى؟ إنّما هم أطفالٌ أبناءُ أربعةِ قرونٍ، ولكنَّ أمَّتك أختُ الدهرِ؛ لمَّا وُلد الدهرُ كانت شابَّةً، وستكون شابَّةً حين يموتُ الدهرُ.

يا أخي، إذا وجدتَ واسعًا من الوقتِ؛ فادرس أحوالَ القومِ وأوضاعَهم في معايشهم، وتجارتهم، وصناعتهم، ومدارسهم. وابحث عن أخلاقهم ومعتقداتهم؛ على أن تنظرَ بعين الناقدِ العاقلِ الذي يدوِّن الحسنةَ ليتعلمها،

استقبله مصطفى أولًا في بيته مرحبًا، ولما أراد أن ينصرف أعطاه مقالة من مجلة الرسالة للشيخ علي الطنطاوي بعنوان "رسالةٌ إلى مُبْتَعَث" كُتِبَت منذ قرابة قرن من الزمان:

- عسى أن تنفعك ولدي العزيز.

فتح إلياس الرسالة ليقرأ فيها:

"يا أخي، إنّك تمشي إلى بلدٍ مسحورٍ - والعوذ بالله - الذاهبُ إليه لا يؤوبُ إلا أن يؤوبَ مخلوقًا جديدًا، وإنسانًا آخرَ غيرَ الذي ذهب؛ يتبدلُ دماغُه الذي في رأسه، وقلبُه الذي في صدره، ولسانُه الذي في فِيهِ، وقد يتبدلُ أولادُه الذين هم في ظهره إذا حملهم في بطنِ أنثى جاء بها من هناك. إي واللهِ يا أخي، هذه حالُ أكثرٍ من رأينا وعرفنا، إلا من عصم ربُّك؛ يذهبون أبناؤنا وإخوانُنا وأحبّاؤنا، ويعودون عُداةً لنا، دعاةً لعدوِّنا، جندًا لحربنا، وعونًا لمستعمري بلادنا. لا أعني الاستعمارَ العسكريَّ؛ فهو هيّنٌ ليّنٌ، وإنّما أعني استعمارَ الرؤوسِ بالعلمِ الزائف، والقلوبِ بالفنِّ الداعرِ، والألسنةِ باللغةِ الأخرى، وما يتبع ذلك من الأرتيستات، والسينمات، وتلك الطامَّاتِ من المخدراتِ والخمورِ، وهاتيك الشرور.

فانتبهْ لنفسك، واستعنْ باللهِ؛ فإنك ستَقدَمُ على قومٍ لا يبالي أكثرُهم العفافَ، ولا يحفلُ العِرضَ، بل ليس في لغاتهم كلّها كلمةٌ بمعنى العِرض كما نفهم نحن معناه! فترى النساءَ في الطرقاتِ والسُّوحِ والمعابر يعرِضْنَ أنفسَهنَّ عرضَ السلعةِ؛ قد أذلتْهنَّ مدنيةُ الغرب، وأفسدتْهنَّ، وهبطتْ بهنَّ إلى الحضيضِ، فلا يأكُلْنَ خبزَهنَّ إلا مغموسًا بدمِ الشرفِ. وأنت لا تعرف من النساء إلا أهلك: مخدَّراتٍ، معصوماتٍ، كالدرِّ المكنونِ، شأنَ نساءِ الشرق المسلم؛ حيث المرأةُ عزيزةٌ، مكرَّمةٌ، محجوبةٌ، مخدَّرةٌ، ملكةٌ في بيتها، ليست من تلك الحطَّةِ والمذلَّةِ في شيء. فإيَّاكَ أن تفتنك امرأةٌ منهنَّ عن عفتك ودينك، أو يذهبَ بلُبِّك جمالٌ لها مزوَّرٌ، أو ظاهرٌ خِداعٌ. هي - واللهِ - الحيّةُ: ملمسٌ ناعمٌ، وجلدٌ لامعٌ، ونقشٌ بارعٌ، ولكن في أنيابها السمُّ... إيَّاكَ والسمَّ.

إنّ اللهَ قد وضع في الإنسانِ هذه الشهوةَ وهذا الميلَ، وجعل له من نفسه عدوًّا لحكمةٍ أرادها، ولكنّه أعطاه حصنًا حصينًا يعتصمُ به، وسلاحًا متينًا يدرأُ به عن

لم يجبها مصطفى، لكنه أومأ برأسه أي نعم، كان مستعدًّا أن يلبِّي كل رغبات نُسيبة وليندا.

ابتسمت نُسيبة نفس ابتسامة ليندا يوم قَبَّلَتْه قُبْلَة العام الجديد:

- أمي تمنت أن تصحبنا يومًا إلى ملعب ستامفورد بريدج حتى نشاهد مباراة لتشيلسي.

طافت في نفسه ذكريات ليندا الجميلة، ثم أومأ بالموافقة وهو يتذكر قسمها له منذ ثلاثين عامًا أن يصحبها إلى ذات الملعب لمشاهدة فريقها المفضل.

مضت الأيام تباعًا على حاله وحالها، يتذكَّر ماضيه وأندلسه المفقود.

يتأمل حاله ويتذكَّر الموريسكيين. هل صار موريسكيًّا في أكسفورد؟! وهل صارت أكسفورد أندلسه التي سلَّم مفاتيح آخر معاقلها إلى فرناندو وإيزابيلا؟!

هل أمسى هو طُلَيْطِلَة التي اقتربت حتى سقطت، أم كانت أكسفورد هي طُلَيْطِلَة الحاضر الأليم؟!

لم يدرِ، ولم تعد لديه طاقة للتفكير.

مضت الأيام، ليتلقَّى اتصالًا هاتفيًّا من صديق الماضي الذي فرَّ كما فرَّ أجداده إلى دولة المرابطين، تلقى اتصالًا من رشيد يخبره أنَّ ولده إلياس سوف يأتي الأسبوع القادم لدراسة الدكتوراة في جامعة أكسفورد. اتصالًا يوصيه عليه في أيامه الأولى.

انتظره مصطفى على محطة القطار، كما انتظره ويليام منذ قرابة ثلاثين عامًا، ما أشبه اليوم بالبارحة. تبدَّلت الأشخاص وتغيَّر شكل محطة القطار، وما تغيَّرت طباع الناس، ما زالوا ينطلقون إلى حتفهم كل صباح بأملٍ زائف تحت وميض فجرٍ مستتر.

إلياس، شاب يافع تظهر على سيماه علامات الفلاح، حافظ لكتاب الله كوالده، تذكَّر طارق عندما رآه ففاضت عيناه من الدمع.

الخريف

موت ليندا المفاجئ، أكان انتحارًا أم رغبة في الفرار؟

أشارت التقارير إلى هبوط حاد في الدورة الدموية أدَّى للوفاة. أكان هبوطًا متعمدًا أم رغبةً في لقاء روحها بطارق؟

صلَّى عليها مصطفى، لم يبكِ ولم ينتحب.

وارى جسدها في تراب أكسفورد كما فعل مع ماريان الصغيرة وطارق. صار تراب أكسفورد يحمل بين طيَّاته أكثر مما فوق أرضها.

عادت نُسيبة للحياة مع مصطفى، في حياة مقفرة ليس لها طعم أو رائحة.

نُسيبة في فترة تواجدها الأخير مع ليندا جعلتها ترى الدنيا بمنظار جديد. نهاية ليندا المأساوية دفعت نُسيبة دفعًا للتحرر، خافت من مصير طارق ومن مصير ليندا، كلاهما اِلْتَزَم فكان الالتزام وبالًا عليهما.

ارتدت ثيابًا أكثر تحررًا ونزعت غطاء شعرها وصفَّفت شعرها أكثر جرأة، وتعمدت أن يراها مصطفى وهي تخرج إلى النادي متوجسةً من اعتراضه على ملابسها وعلى هيئتها، غير أنه لم يفعل.

رآها مصطفى تُذَكِّره بليندا يوم رآها أول مرة في عنبر الأجانب، كانت كنسمة الهواء التي تطوف الأرض فتثير بين زهورها أريجًا وبهجة.

لم يعد لديه القدرة على النصح والتوجيه. قضى كل حياته ناصحًا لطارق ولينداء، وفي النهاية لم يجنِ من حصاده إلا الألم. ربما يجب عليه أن يغير طريقة تعامله مع الحياة. كان كالثور الخائر الذي لا يستطيع أن ينهض من نومه.

سألته نُسيبة يومًا:

- أبي، هل يمكن أن تلبِّي لي رغبة واحدة؟ أو بالأحرى رغبة أمي؟

- هل ما زالت تصلّي؟!

لم تعرف نُسيبة كيف تجيب، فلم ترَ أمها تصلّي طيلة الفترة الماضية، ربما تصلّي في غرفتها ولا تراها نُسيبة، سكتت ولم تجب.

في غرفتها، جلست ليندا تنظر إلى نفسها في المرآة، تذكَّرت الماضي كله مرة أخرى وانتحبت. أغلقت على نفسها بابًا وتمنت أن تلتقي بطارق.

عادت نُسيبة إلى البيت، طرقت على أمها الباب، ولكنها لم تجب.

دفعت الباب لتجد ليندا جثة هامدة في ثياب الصلاة، فوق صدرها القرآن الكريم.

مرَّت الأيام تباعًا وهي تقضي حياتها كما كانت شابة قبل إسلامها، متحررة في ملابسها، غير عابئة بكلام الناس ولا نظراتهم.

تألمت نُسيبة وهي ترى ليندا تضحك، شعرت أنَّ هذه القهقهات التي تسمعها لا تخرج من القلب، بل تنفجر من قلب مكلوم لم يجد في الصبر شفاءً. تألمت ولم تدرِ، هل ما فعلته ليندا من التحرر صواب أم خطأ؟!

هل تحررت ليندا لأنها لم تكن مقتنعة بما تفعل أم أنها ما زالت تعاني من صدمة فراق طارق؟!

هل من الأفضل أن تتحرر هي أيضًا حتى لا تلقَى مصير أمها المحتوم؟!

شعرت نُسيبة وهي في أتون صراعاتها النفسية أنها تفتقد أباها، فطلبت من أمها أن تزور أباها وهي تخشى أن ترفض. وافقت ليندا على الفور وقالت لها بلسان تعلوه نبرة الحزن والندم:

- من الأفضل أن تَمْكُثي معه أسبوعًا.

ثم قالت بلسان المحب:

- وأبلغيه مني السلام.

وصلت نُسيبة أكسفورد لترتمي في أحضان مصطفى الذي عاد له جزءٌ من روحه المفقودة. ظلَّ مصطفى يتابع أحوال ليندا ونُسيبة باستمرار، كل يوم عبر اتصال هاتفي مع نُسيبة التي كانت لم تخبره عن كل شيء خوفًا عليه. تردَّدت نُسيبة أن تخبر والدها بتغير حال والدتها، لولا أنَّ ليندا بدأت تضع صورًا لها على مواقع التواصل الاجتماعي. شعرت نُسيبة أنَّ عليها أن تخبر أباها قبل أن يعرف من طريق آخر.

أخبرته بأحوال ليندا وتصرفاتها، شاهدت في عينه الأسى والحزن.

أكان الأسى على ليندا أم الحزن على نفسه التي فقدت كل شيء؟!

سألها سؤالًا واحدًا:

القاتم من الصورة وعدم إدراكها مغزى الحج كما شرحه مصطفى. تذكَّرت نفاق دُبَي، ونفاقها معًا.

- كفى نفاقًا ...

- لم أكن مؤمنة حقًّا يومًا ما، بل كنت أحاول أن أقترب فما استطعت.

- ألم أعلم أنَّ الإيمان بالقضاء والقدر ركنٌ من أركان الإيمان؟!

- ما لِيَ إذًا أُحَمِّل مصطفى مسؤولية موت طارق؟!

تذكَّرت موت طارق ففاضت عيناها من الحزن، كان شمسها التي لا تغيب فغابت، وقمرها المضيء الذي لا يَأْفل فأَفَل، روحها التي تطمئن عندما تنظر إليه، مصطفى الصغير وكفى بها حسنة.

مرَّ على وجودها في عزلتها شهر كامل، لا تخرج من غرفتها إلا لإعداد الطعام لها ولنُسيبة، لا تكلمها برغم محاولات نُسيبة المتعددة.

تلقَّت اتصالات من زينب وعائشة وفاطمة وسماح، لم تجب على أي واحدة منهن. اتصل بها مصطفى مرارًا، لكنها لم تجب عليه ولو لمرة واحدة، كانت ترغب في العزلة حتى يستقر قلبها.

مضت الأيام على نُسيبة وهي تصارع الأفكار. ترى أمها في عزلتها تتآكل كالزهرة التي لا ترى الشمس، وترى أباها المسكين في عزلته وحيدًا يعاني الوحدة والمرض، وتتذكَّر طارق فلا تجد إلا البكاء رفيقًا لها في عزلتها وألمها.

خرجت ليندا بعد شهر كامل بغير الوجه الذي دخلت به، خرجت وقد نزعت حجابها وارتدت فستانًا قصيرًا.

نُسيبة - التي ما اتخذت بعد حجابًا شرعيًّا واكتفت بغطاء الرأس - لم ترتدِ أبدًا هذه الثياب الفاتنة وهي أصغر من أمها بثلاثين عامًا.

تعجَّبت نُسيبة من حال أمها، لكن ليندا لم تدع لها مجالًا للتعجب:

- اليوم مباراة مهمة لتشيلسي في الدوري الإنجليزي، ما رأيك لو ذهبنا معًا؟

كفى نفاقًا

ذهبت ليندا إلى بيت والدها في ضواحي لندن التي كانت تتعاهده بين الحين والآخر بعد وفاة ماريان.

دخلت غرفتها، لتبدأ صراعها مع نفسها.

تذكَّرت الماضي كله وكأنه فيلم يدور أمام عينيها.

تذكَّرت طفولتها البريئة ولهوها بين راحة أبيها وأمها. تذكَّرت دراستها الجامعية وتفوقها الدراسي. تذكَّرت أول يوم رأت فيه مصطفى، تذكَّرت قُبْلَتَها الأولى، قُبْلَة العام الجديد. تذكَّرت خجله وفراره منها. تذكَّرت امتناعها عن الطعام في رمضان حبًّا له. تذكَّرت العملية الجراحية التي قام بها. تذكَّرت خطبتها وزواجها، تذكَّرت عفافه، وحسن خلقه. تذكَّرت ميلاد طارق وإسلامها. تذكَّرت رحلة الحج والروضة والكعبة. تذكرت ميلاد نُسيبة وحلقات المسجد. تذكرت القاهرة وشبرا ودُبَي. تذكرت هدى، وخالد، ومروان، وأسماء.

هل حقًّا كانت سعيدة؟! أم أنَّ الحياة جرفتها فاعتادت النمط الجديد؟!

هل كانت سعيدة أكثر في تنورتها الضيقة أم في حجابها الفضفاض؟!

هل كانت سعيدة أكثر وهي في حلقات المسجد تتلقى العلم أم في جنبات ستامفورد بريدج تشاهد فريقها المفضل؟!

هل كانت سعيدة أكثر مع زينب وفاطمة وسماح أم وسط قريناتها يمارسن الجري في مضمار النادي؟!

هل كانت مؤمنة صادقة؟!

تذكَّرت ذكرياتها البائسة مع سمير، وتذكَّرت انزعاجها من أحوال المسلمين في بلاد تزعم أنها تدين بالإسلام. تذكَّرت ضجر هدى من جارتها سليطة اللسان، وحال خالد مع زملائه المرتشين في العمل. تذكَّرت رحلة الحج ورؤيتها للجانب

عاد مرة أخرى بعد مُضِي أسبوع، لتعيد ليندا الطلب أكثر وضوحًا وكأنها أخذت وقتها في التفكير:

- من فضلك مصطفى، دعنا نفترق في سلام.

توسَّل لها مصطفى بالحاضر الأليم:

- هلا فكرتي في حالي وأنتم جميعًا تتركونني؟!

- هل فكرتي في صحتي وأنا أقترب من الستين؟!

- أهذا جزاء الإحسان؟!

لم تترك ليندا المجال لمصطفى مجددًا لمزيد حديث، جمعت حقائبها وحقائب نُسيبة ووضعتها في السيارة، وانتظرت نُسيبة أن تلحق بها في السيارة.

تسمَّرت قدما نُسيبة وهي ترى نفسها تختار بين شِقِّها الأيمن وشِقِّها الأيسر، سُقِطَ في يديها فلم تدرِ ما تفعل. لم تكن صاحبة حيلة وجَلَد، أشفق عليها مصطفى فاحتضنها احتضان مُوَدِّع:

- اذهبي مع والدتك، فهي في أَمَسِّ الحاجة إليك.

انطلقت نُسيبة تخطو نحو السيارة، في كل خطوة تجدد العهد بالنظر لوالدها المسكين.

شعر مصطفى وقتها أنَّ الابتعاد عنها الآن هو أفضل الحلول، لعلَّها تهدأ فيما بعد (لا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أمرًا).

غفر لها صراخها في جنبات المستشفى، فقد كان مقدرًا لحالها وحزنها على طارق، أما الطلاق، فَلِمَ؟

توسَّل لها مصطفى بالماضي الجميل:

- أَنَهْدِمُ كل شيء في لمح البصر؟!

- هل نَمْحِي ماضينا كله، ونقتل مستقبلنا الذي لم يبقَ منه إلا القليل؟!

- ألا تتذكَّري يا ليندا عشرين عامًا من السعادة، بَنَيْنَا فيها حياتنا وأقمنا فيها صرح سعادتنا؟!

لم تستمع ليندا لمصطفى:

- لا أتحمل أن أراك.

- وماذا عن نُسيبة؟! ألا يحق لها أن تتربَّى بيننا؟!

كانت نُسيبة آخر أوراقها في هذه الحياة التي لن تتحمل أن تفقدها:

- نُسيبة أصبحت كبيرة، وسوف تصحبني، لن أتركها لك كما تركت طارق من قبل.

جلست نُسيبة بينهما في صراع لا يعلمه إلا الله، فقدت أخاها وعضدها، والآن تُخَيَّر أن تبتعد عن أبيها أو عن أمها.

انهارت بينهما، متوسلة لليندا أن تعدل عن قرارها، التي أبت أن تستمع لتوسلات مصطفى أو بكاء نُسيبة.

أشفق مصطفى على نُسيبة - وهو الذي يعلم رقَّة قلبها - اقترب منها مقبلًا رأسها:

- عليك الاهتمام بوالدتك.

تركهما مصطفى فترة، حتى تلين القلوب وتهدأ النفوس.

طلّقني

مضت جنازة طارق، ليدفن مصطفى جزءًا منه مرة أخرى في تراب أكسفورد. مضت الجنازة بعدما غسله بكلتا يديه وهو يقول له:

- طبت حيًّا وميتًا.

اجتمعت في جنازته الآلاف، فقد كانت حادثة وفاته حدثًا زلزل المجتمع المسلم في أكسفورد، بكاه أهل أكسفورد جميعًا؛ بكته النساء قبل الرجال.

صلَّى عليه مصطفى، وهو لا يدري كيف ينظر إلى وجوه الناس يعزونه في الفقيد ويشاطرونه الأحزان. تسابق أصدقاء طارق - إبراهيم وحمزة وثامر - في حمل جثمانه ليضعوه في تراب أكسفورد، ليقف على قبره موسى داعيًا له بالرحمة ولذويه بالصبر والسلوان.

انتهت مراسم العزاء، لينفض الجميع من حول مصطفى وليندا ونُسيبة. شعر وقتها – ووقتها فقط – أنَّ طارق قد مات. انفجر باكيًا كما لم يفعل من قبل، يبكي ماضيه وحاضره ومستقبله.

مرَّت الأيام تباعًا ومصطفى وليندا في عزلة تامة.

ظلَّ غضب ليندا من مصطفى يتأجج في قلبها، لم تستطع أن تغفر له سوء فعلته، ومشهد صفعة مصطفى لطارق ماثلًا أمام عينيها لا يفارقها، لا في يقظتها ولا في منامها.

فكَّرت وفكَّرت وفكَّرت، لم تتحمل أن ترى مصطفى مرة أخرى.

- أريد الطلاق.

تفاجأ مصطفى بقول ليندا، كان يعلم أنها غاضبة، لكن هذا قدر الله عزَّ وجل الذي لا مفرَّ منه.

بين الجموع، يشق الطريق شيخٌ أشْعَث، يصيح بالوصايا العشر، يُلقِي غلامه في الطِّسْت، وينزِع عن ابنته غشاء بكارتها هبةً لملك الفرنجة الأشقر.

انتفض مصطفى من نومه وهو يتْفُلُ عن يساره ثلاثًا:

- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

انتفض وهو يبكي بكاء الثكالى.

الكابوس

ليلةٌ ممطرة تختلط فيها أصوات الرياح مع زخات المطر المتعاقبة على أبواب القصر الملكي.

ملكٌ يلهو في أحضان جارية تتراقص بين يديه، تدسُّ في فمِهِ حبات العنب الأخضر عبر الشفاه الحمراء.

ملكةٌ تلهو فوق الطين المعقود بمزيج المسك والعنبر.

يومٌ قائظ، تَقْطُر من فَمِ الشمس أشعة تحرق ما تبقَّى من الأخضر فتزيد مساحات اليابس الشاسعة.

شيخٌ يرْتَكِزُ فوق فأسه، يُخْرِجُ - من أرضٍ هالكةٍ - ثمراتٍ عاطبةً يدُسُّها في جيبه حتى يطعم زوجته الطاعنة في العمر.

امرأةٌ ثكلى لا تجد في ضرعها ما يكفي رضيعها الذي يتلوَّى من الجوع.

أصواتٌ خافتة تدور كالرَّحَى، تُنْذِرُ بالموت الأسود.

جدرانٌ صامتة وأبوابٌ موصدة، يَقْطُنها جنين الخيانة والغدر المُطْبَق.

رسائلٌ غامضة تُبَثُّ عبر آفاق الليل المُرْسَل واليوم الأشْهَب.

أبواقٌ تصيح بالتسليم دون شرط مسبق، رماحٌ تسقط فوق أَسِرَّة اليتامى فتُلَطِّخُها باللون الأحمر.

صليلُ سيوف تقطعها أنَّاتٌ تَخْرُس.

أشلاءٌ تسقط فوق أوراق الهدْنَة المَوْسُومَة بالذلِّ المُدْقِع.

طابورٌ طويل، ينتظر قرار التعميد في الطِّسْت الذهبي بين يديِّ الملك والقسِّ الأكبر.

مات طارق، وماتت أحلامه معه.

مات طارق رفيق درب نُسيبة وفتى أحلامها وأنيسها في يومها وليلها.

مات طارق أخوها التي ما اتكأت عليه إلا وجدته سندًا وعَضُدًا لها.

مات طارق، ولم تدرِ بعد معنى الموت.

مات طارق، وماتت هي معه.

مات طارق، أمل ليندا في الحياة التي ضحت من أجله، ضحت بمستقبلها وحياتها.

مات طارق بسبب غباء وتعنت مصطفى.

مات طارق، في نفس المستشفى اللعينة التي شهدت فراق أحبتها جميعًا.

مات طارق، فتذكَّرت ليندا فراق الصغيرة ماريان. تذكَّرت كذب مصطفى عليها وإخفاءه أمر مرضها. تذكَّرت الماضي الأليم، فتجدَّد في قلبها الحزن على ماريان الأم وماريان الصغيرة، وتجدَّد ألمها من مصطفى.

انفجرت ليندا في وجه مصطفى في طرقات المستشفى، وهي تضربه بكلتا يديها المغلقتين فوق صدره:

- لن أغفر لك، لن أغفر لك.

احتضنت نُسيبة أمها تهدأها وهي تبكي، لا تدري ماذا تقول.

سقط مصطفى على الأرض - كما سقطت طُلَيْطِلَة وكما سقطت الأندلس - وهو يردد:

- إنا لله وإنا إليه راجعون.

أَخَرَجَ الرجل الشرقي من عباءة مصطفى، فلا يقبل نقاشًا ولا يسمح بمعارضة؟!

ثم إنَّ طارق محق في كلامه، ما الفرق بيني وبين هيلدا؟! كلانا لم نكُنْ على دين الإسلام.

لماذا قَبِلْتَ يا مصطفى أن يداعب حبي شغاف قلبك، وتنكر هذا على طارق؟!

هل ندمتَ يا مصطفى على الزواج مني؟! ألم أكن قرَّة عينك التي استجابت لكَ في كل صغيرة وكبيرة؟!

ظلُّوا على هذه الحالة وهم يستمعون إلى سيارات الإسعاف تنطلق وصافرتها تُدَوِّي في كل مكان. شعرت ليندا بانقباض صدرها، شعرت وكأنَّ شيئًا يحدث لها، شعرت وكأنَّ قلبها ينزف دمًا.

انتفضت عن كرسيها لتلتقط هاتفها محاولة أن تطمئن على طارق.

لم يجب أحد، أما زال غاضبًا؟!

أين أنت يا طارق؟!

عاودت الاتصال مرارًا ولا مجيب، حتى سمعت صوتًا غريبًا يردُّ عليها:

- صاحب هذا الهاتف في المستشفى الآن لإجراء عملية جراحية عاجلة.

هرع مصطفى - وهو يمسك قلبه الذي يؤلمه - مع ليندا ونُسيبة إلى المستشفى. دلفت ليندا إلى المستشفى وهي تجري، ومصطفى لا يقوى على السعي يتأبط ذراع نُسيبة، لا يفْتُر فمه عن الدعاء بكل ما أوتي من قوة أن يردَّ إلى طارق صحته وعافيته.

ثلاث ساعات على أحرِّ من الجمر، ليخرج الطبيب بعدها من غرفة العمليات ناعيًا طارق.

مات طارق، مات الفتى الرضِيُّ الذي جرى القرآن على لسانه وفي قلبه.

مات طارق، وماتت معه الأندلس في قلبه، شعر أنَّ غرناطة قد سقطت الآن.

لن أغفر لك

انطلق طارق غاضبًا وهو يتذكَّر تَهَكُّم والده على حبيبة قلبه، فيزداد غضبًا على غضب. سار في الطريق لا يُبْصر من حوله، يتذكَّر أَلَمَه النفسي من صفعة أبيه وأَلَمَه الروحي في هيلدا. يتذكر الماضي برمَّته، يتذكر أدبه وخلقه ونجاحه، ويتذكر الحاضر وصفعة أبيه. لم يُبْصِر طريقه ولم يسمع بوق السيارات المنطلقة كالبرق، تصدمه لتُلْقِيه على حافة الطريق ينزف من رأسه دمًا يتدفق كالسيل.

جلس مصطفى على الأرض يشعر بأَلَمِه في طارق، ويشعر بوخزٍ في قلبه. اقتربت منه نُسيبة تضمه بين ذراعيها، تهدهده كما كانت تفعل أمه من قبل وكما كانت تفعل ليندا في الأيام الخوالي.

هل أخطأ في حق طارق، قرة عينه ونور بصره؟

تراءى له في جلسته تلك حواره مع أيمن وهو يقول له - منذ ما يزيد على عقدين من الزمان - نفس ما قاله هو لطارق. وقتها، استشاط غضبًا من أيمن وهو يريد أن يَكِيل له اللكمات عندما تعرَّض لشرف ليندا.

- ما الفرق إذًا؟! لماذا استطعتُ أن أُهين طارق ولم أتحمل إهانة أيمن؟!

لم تكن هيلدا هي السبب، بل الشمطاء كاترين التي كانت كالشيطان يُنَغِّص عليه يومه وحياته. هل حقًّا كاترين هي السبب أم تجربته القاسية – تجربة الاقتراب - التي ما تمنَّى لطارق أن يخوضها مثلما فعل ويقترب مثلما اقترب؟!

حزنت ليندا من طارق لتطاوله على مصطفى وعليها، ولكنها كانت تقدِّر ما يموج في قلبه من حبٍّ هيلدا. غضبت من طارق بشدة، ولكن غضبها من مصطفى كان أشد. لم تتخيل يومًا أن يمدَّ مصطفى يده على طارق. طارق الذي كان مصدر فخره واعتزازه في كل مكان.

أَمَعَ أول خطأٍ يكون هذا جزاءه؟!

زادت حدَّة مصطفى – أكثر وأكثر - عندما قارن طارق بين حبِّه الطاهر لليندا وحبِّه الطائش لهيلدا:

- الفرق كبير، أمك كانت طاهرة نقية تؤمن بالنصرانية ولم تتخذ خليلًا قط، ولكن هل تعرف من نام على فراشها قبلك؟!

وقعت الكلمة في قلب طارق كخنجرٍ معقوف، فلم يدرك إلا وهو يقول لأبيه:

- شكرًا أبي، عمومًا أنا ما زلت أطلب موافقتكما رغم أنني أستطيع الزواج منها دون الحاجة لهذه الموافقة.

هذا آخر ما توقعه مصطفى من طارق، طارق الذي أفنى عمره في تربيته، طفلٌ يتأرجح بين كفتيه، وفتى يتحدث الجميع على حسن تربيته وخلقه، وشابٌ قد تربَّى بين طرقات المسجد وفي أَرْوِقَة القرآن.

طارق ابنه وفلذة كبده، الذي دفع مصطفى حياته ثمنًا لسعادته وتربيته، يردُّ له الجميل ألَّا قيمة لكَ ولا لرأيك، ما أغبن تجارته.

طارق الذي رأى فيه طارق بن زياد يدكُّ حصون الفرنجة في قِشْتَالَة وطُلَيْطِلَة، فأمسى اليوم يدكُّ بقوله قلبه فيشطره نصفين.

لم يستفق مصطفى إلا وهو يصفع طارق على وجهه، يصفعه ليخرَّ بعدها على الأرض متحسِّرًا على تجارته التي يراها تبور أمامه.

تلقَّى طارق صفعة أبيه ليفرَّ بعدها من المنزل، وهو يتألم بعد أول مرة يتلقَّى مثل هذه الصفعة في حياته. هو، الطفل المؤدب الذي كان مصدرَ فخرٍ له في بريطانيا ودُبَي ومصر. الشاب الذي تغنَّى بأدبه الجميع وبِحُسْنِ خلقه العدو قبل الصديق. الطالب المتفوق أبدًا في مدرسته ومسجده وناديه. الشاب البار الذي ما رفع صوته على والدَيْه قط. الشاب الذي ما اعترض مرةً واحدة على والدَيْه من قبل، فلما اختلف في وجهة نظر واحدة، يتلقَّى هذا المصير.

فرَّ هاربًا، لا يُعَقِّبُ على بكاء ليندا أو صراخ نُسيبة.

- لكن الله عزَّ وجل قال: (وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى)، فلماذا نحاسب هيلدا على أخطاء أمها؟ ما ذنب عكرمة أنه كان ابن إبي جهل؟ وما ذنب خالد أنه ابن الوليد بن المغيرة؟

لم يستطع مصطفى أن يُمَارِيه في مَنْطِقِه فنقل الحوار لبُعْدٍ آخر:

- ألا تعرف أنَّ الرسول ﷺ قال: (تُنْكَحُ المَرْأَةُ لأربع: لِمَالِها ولِجَمَالِها ولِحَسَبِها ولِدِينِها، فاظْفَرْ بِذَاتِ الدِّينِ تَرِبَتْ يَدَاكَ)، خبرني بالله عليك، ما لديها من هذه الأربع؟

- مالُها؟ لا أعتقد أنَّ لها مالًا، فقد ظلت كاترين تقترض من أمك المال حتى استغنت بتجارتها الفاسدة الآن.

- جمالُها؟ لقد عرفتُ أنها تشبه كاترين، ولا أدري أي جمال رأيت؟!

- حسبُها؟ لا ندري عنه شيئًا.

- دينُها؟ فهي كافرة وكفى بالكفر إثمًا.

نزلت الكلمات على قلب طارق تؤلمه، دار في خُلْدِه أن يفنِّد كل نقطة من قول أبيه، ولكنه آثر أن يصل إلى نهاية الطريق بأقصر وسيلة:

- هي ليست كافرة، بل هي من أهل الكتاب، وسوف أسعى أن أجعلها تؤمن بالإسلام إن شاء الله.

لوَّح مصطفى بيده في وجه طارق:

- أضغاث أحلام، ومن أدراك أنها من أهل الكتاب؟

لم يجد طارق بُدًّا من الهجوم:

- وما الفرق بينها وبين أمي إذًا؟! لقد تزوجتَ أمي وكاترين أختها تربت معها، وتأثير الأخت أقوى من تأثير الأم. ولقد تزوجت أمي كذلك وهي على دينها ولم تُسْلِم إلا يوم مولدي، فما الفرق بينهما؟!

كان اللقاء عاصفًا كَلَيْلَةٍ شاتيةٍ فوق مركبٍ تلهو به أمواج الأطلسي.

- أبي، هل من الممكن أن نكمل نقاشنا بالأمس؟

قالها بهدوء وأدب جم، قالها لينفجر مصطفى في وجهه:

- ألم تجد من دون النساء إلا هيلدا؟! ألم تجد إلا من لا نعرف لها نسبًا ولا أصلًا؟!

- خبرني بالله عليك، هل تعرف أنت نسبها، بل هل تدري هيلدا من هو والدها حقًا؟ أكاد أقسم غير حانث أنَّ كاترين نفسها ربما لا تعرف. وهل لم تجد إلا ابنة هذه القوادة التي تقود المسيرات للشواذ قائدًا ودليلًا؟!

كلماتٌ اضطُرَ لأول مرة من مصطفى أن يقولها، احتفظ بها في قلبه سنوات طويلة ولم يرغب أن يخدش قلب ليندا بها، فلم يكن هناك داعٍ لذلك. ترك ليندا تحافظ على علاقتها الهشة بأختها، ولم يتدخل بينهما شريطة ألا تتأثر ليندا وأسرته بكاترين وحياتها.

نزلت كلمات مصطفى على أذن ليندا كالصواعق، وهي تعلم أنَّه محق في كل كلمةٍ قالها، لكنها لم تكن ترغب أن تسمع ما يُشِين كاترين، فهي أختها مهما حدث.

ترك طارق والده يتكلم دون أن يقاطعه بكلمة واحدة، فلما فرغ مصطفى، قال طارق بهدوء:

- كل ما قلته عن خالتي صحيح ولا أنكِرُه ولا تنكِرُه هيلدا، ولكني أطلب الزواج من هيلدا وليس كاترين.

زادت حدَّة مصطفى وهو يرد عليه:

- ومن أدراك أنها ستكون مثل أمها، فالعرق دساس؟!

استمر طارق في هدوءه:

ما الفرق؟

سقطت كلمات طارق في قلب مصطفى في مقتل. لم يخطر على باله يومًا أن يختار طارق من دون نساء العالم، هيلدا ابنة كاترين.

كاترين التي تبغضه أكثر من الموت. كاترين التي تكره الإسلام مُتَمَثِّلًا في مصطفى.

كاترين التي منعته منذ أكثر من عشرين عامًا أن يدفن ماريان في مدافن المسلمين.

كاترين التي قضت حياتها تبيع جسدها لمن يدفع أكثر، فلما انقضت زهرة شبابها صارت قوادة تقود الشواذ إلى حتفهم وحتف البشرية جميعًا.

وأكثر ما أحزنه أنَّ طارق أخفى عليه نبأ هيلدا عامين كاملين.

عامان لا يدري ماذا حدث بينهما وهو في سنِّ الفتوة والشباب.

ظلت الأفكار تتوارد على خاطره، كما تتوارد على خاطر ليندا.

هل تعرف كاترين أنَّ ابنتها وقعت في حبِّ ابن مصطفى؟

كاترين التي لم ترَ منها إلا الحقد والكراهية.

كاترين التي لا تعرف ليندا إلا وقت الضيق.

كاترين التي لم تعبأ بأسرة ولا بزوج ولا حتى بابنة، لم تعبأ إلا بنفسها وجسدها.

أراد طارق أن يحسم أمره في معركته الحامية الوطيس، مستعينًا بكلمة أحبك - من فَمِ هيلدا - التي كانت محفِّزًا له ليخوض هذه المعركة. عاوَدَ الكَرَّةَ في اليوم التالي شاهرًا سيف حجَّتِه في وجه والِدَيْه يفند آراءهما، حتى ينعم بموافقتهما على الزواج من هيلدا. استعدَّ للنزال وهو يعلم بأي لغة سيردُّ على والده، باللغة التي يفهمها ولا يستطيع أن يردَّها عليه، بلغة القرآن.